DIA Iraq Jawad
M Damerji

أهل الذمة في مصر

في

العصر الفاطمي الثاني والعصر الأيوبي

(٤٦٧ - ٦٤٨هـ / ١٠٧٤ - ١٢٥٠م)

دكتور سلام شافعي محمود سلام
مدرس التاريخ الاسلامي
بكلية الاداب ببنها

١٩٨٢

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

(مقـدمة البحث)

كان أهل الذمة من اليهود والنصارى فى العصر الفاطمى الثـــانى والعصر الأيوبى ما يزالون يشكلون أقلية نشيطة كبيرة العدد • فنصارى مصر – وبخاصة الأقباط كان عددهم كبيرا نوعا ما ، ويكونون جـــزءا من سكان الغالبية العظمى من قرى ومدن مصر ، ويعيشون جنبا الى جنب مع السكان المسلمين ، أما يهود مصر فى هذه الفترة فكانوا يقدرون ببضعة آلاف ، ينتشر غالبيتهم فى العديد من المدن المصرية ، وقليل فى الريف •

ومن ثم فان أهل الذمة فى مصر كانوا يمثلون قطاعا هاما وحيويا من قطاعات المجتمع المصرى المؤثرة فى حركته وتاريخه • كما انهم شهدوا خلال الفترة موضوع البحث مقدم الحملات الصليبية الى الشرق الاسلامى وغزوا صليبيا لبلاد الشام وفلسطين ، وانتهاكا لمقدسات الاسلام فيها ، ومقتل آلاف المسلمين ، كما شهدوا انتقال السلطة فى مصر من يد الخلفاء الفاطميين دعاة المذهب الشيعى – الذى كان عصرهم عصرا ذهبيا بالنسبة لأهل الذمة – الى حكم سلاطين الايوبيين حماة المذهب السنى •

لذا كان اختيارنا لموضوع « أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والعصر الأيوبى »نظرا للدور الذى لعبوه فى هذه الفترةمنتاريخمصر اذ تقلدوا أرقى مناصب الدولة وأعلاها فلأول مرة فى تاريخ مصرالاسلامية يسند أحد خلفاء العصر الفاطمى الثانى منصب وزير التفويض الى ذمى مسيحى ، كما تقـــلدوا وظائف الادارة العليـــا فى الحكومة ، كرئاسة للدواوين ، وولاية الأقاليم ، فضلا عن اشتغالهم بالكتابة فى الدواوين المالية والادارية فى الادارات المركزية وفروع الادارة فى الأقاليم ، كما اختص كثير من مشاهير الأطباء الذميين بخـــدمة الخلفـــاء الفاطميين ، وسلاطين الأيوبيين ، والوزراء وغيرهم من كبار رجالات الدولة وأمرائها •

واذا كان الفاطميون – لأنهم وجدوا أنفسهم فى محيط عدائى من أهل السنة – قد استعانوا بأهل الذمة فى ادارة الدواوين لمهارتهم ، فان سلاطين الأيوبيين وهم حماة المذهب السنى لم يستطيعوا ان يستغنوا عنهم حتى لا يتوقف دولاب دولتهم وان كانوا قد فضلوا لرئاسة الدواوين من أسلم منهم على أيديهم ٠

ولقد أسهم أهل الذمة فى تنفيذ سياسة مصر الداخلية والخارجية ، واستعانت بهم السلطات الحاكمة فى العصر الفاطمى الثانى لتدعيم علاقاتهم ببعض الدول المسيحية غير أن سيطرة هؤلاء الذميين – وبخاصة النصارى – على الدواوين الحكومية فى العصر الفاطمى الثانى ، فضلا عن انحيازهم لبنى ملتهم ، وتعمد رئاستهم تنصير الادارة الحكومية ٠ قد أدى الى احتجاج المسلمين ، وبالتالى الى تدخل الخلفاء لاعادة الأوضاع الى نصابها ٠

وقام أهل الذمة فى مصر فى ظل سياسة التسامح الدينى بدور هام فى الحياة الاقتصادية ، وأسهموا بنصيب كبير فى النشاط الزراعى ، اذ كان منهم ملاك الأراضى الزراعية ، والضياع ، والاقطاعات ، الى جانب الأراضى الكثيرة التى كانت فى حوزة الكنائس والأديرة ، كما كان لأهل الذمة – وبخاصة الأقباط – دور كبير ونشيط فى مجالات الانتاج الصناعى فى مصر – فعلى أيديهم ازدهرت كثير من الصناعات التى اشتهرت بها مصر وبخاصة فى أسواق العالم ٠ وأدى الفنان القبطى دورا هاما فى مجالات الفنون المختلفة ، فترك الفن القبطى أثره على كثير من الصناعات ٠ كما أسهم أهل الذمة بدور حيوى فى مجال التجارة الداخلية فضلا عن قيامهم بدور نشيط فى مجال التجارة الخارجية التى واصلت ازدهارها على الرغم من قيام الحروب الصليبية ٠

وكان أهل الذمة بمثابة طبقة اجتماعية متميزة عاشت فى قرى وريف مصر ، وفى هذه الفترة موضوع البحث من تاريخ مصر الاسلامية كانت ماتزال توجد بعض القرى والمدن التى غلب عليها السكان من الأقباط بل كان اقليم الصعيد غالب أهله قبط ٠ وعلى الرغم من أنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية التى سادت أنحاء مصر ، الا أن بعض سكان قرى النصارى الصعايدة كانوا يتكلمون اللغة القبطية ويفسرونها بالعربية، أما كبار رجال الدولة من أهل الذمة ، وأعيان القبط ، وأغنياء اليهود ، فقد كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، ويمتلكون الثروات الطائلة ، والأملاك ، والضياع ويمتطون الركوبات المسومة المحلاة بالسروج الموشاة ، ويسكنون القصور والدور الفخمة التى امتلأت بالأثاث الفاخر ، والمماليك والجوارى من المسلمين

والمسلمات(١) والعبيد كما لقبوا بالألقاب الرنانة ، واختلطوا بكبار رجال الدولة ، ومدحهم الشعراء ، كما كان بعض رؤسائهم من خواص الخلفاء والسلاطين الذين أنعموا عليهم بالهدايا والخلع والصلات ، والرواتب ، والاقطاعات ، وكان ترفعهم على هذه الحال يؤدى الى احتجاج المسلمين وثورتهم ولذلك كانت السلطات الحاكمة تلجأ الى تطبيق الشروط العمرية ، كما كانت السلطات الحاكمة تتغافل أحكام العمل بها ، تمشيا مع سياسة التسامح الدينى التى كانت الطابع العام لسياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء أهل الذمة ٠

وكانت احتفالات أهل الذمة بأعيادهم من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى المجتمع المصرى فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى ٠ وكان عامة المسلمين يشاركون الذميين الاحتفال بهذه الأعياد ، كما أن بعض خلفاء العصر الفاطمى الثانى ووزرائهم العظام رسموا بما جرت به عادتهم فى هذه الأعياد التى قل اهتمام السلطات الحاكمة بها فى العصر الأيوبى ، ونادرا ما فرضوا القيود على بعضها ، وان شغف عامة المصريين بالاحتفال بها ٠

وقد شهدت هذه الفترة أيضا عصرا ذهبيا فى العلاقات بين الدولة والكنيسة كما شهدت جوا من الود فى العلاقات بين الدولة ورؤساء الطائفة اليهودية فى مصر ، فتمتعت دور العبادات بحرية اقامة الشعائر الدينية ٠ كما سمحت السلطات الحاكمة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى ، ببناء الكنائس وتجديدها ، وتعميرها وترميمها ، بل ان بعض الخلفاء الفاطميين ووزرائهم ، وكذلك بعض سلاطين الايوبيين قاموا بزيارة بعض الديارات ، واجتمعوا بالرهبان وأقطعوهم الأملاك والأراضى ، ومنحوهم الأموال والثمار والامتيازات ، والمراسيم والمناشير التى تحفظ حقوقهم ، كما رعوا الكنائس والديارات ، حتى فى حالات خلو كرسى البطريركية ٠ واذا كانت بعض الكنائس والديارات قد تعرضت للهدم والتدمير ، فلم يكن ذلك الا فى حالات الفتن والاضطرابات ، أو نتيجة لموقف متشدد من قبل السلطات الحاكمة ، وهى مواقف نادرة سرعان ما كانت تعود بعدها هذه السلطات الى التصريح باصلاح الكنائس وتعميرها ، بل وصرف الأموال لاعادة بنائها على الرغم من تنافى ذلك مع الشروط العمرية التى لم تكن تطبق فيما يتعلق بالكنائس والديارات الا فى القليل النادر ٠

وكان لعلاقات مصر بالدول المسيحية أثره على أهل الذمة فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى ، ذلك أن تدهور العلاقات بين مصر وبيزنطة فى العصر الفاطمى الثانى قد أثر على أحوال النصارى فى مصر وبخاصة طائفة

---

(١) المقريزى : الخطط ، ج ١ ، ص ٤٠٦ ٠

الروم الملكانية ، بينما أدى تحسين هذه العلاقات فى عهد صلاح الدين الى ازدياد نفوذ هذه الطائفة وبخاصة فى الأماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس • وكان استيلاء الصليبيين على القدس فى غير صالح أقباط مصر فقد حرموهم من زيارةالمقدسات المسيحية ، بينما نجد صلاح الدين بعد فتحه للمدينة المقدسة يضع جميع المذاهب المسيحية على قدم المساواة ويرد للاقباط حقوقهم الدينية فى المدينة ، كما تركت الحملات الصليبية على مصر أثرا لا يمكن اغفاله على أهل الذمة فيها • كذلك كان للعلاقات بين الفاطميين والأيوبيين فى مصر وبين بلاد النوبة والحبشة ، أثرها الكبير على أقباط مصر ورعايا أهل هاتين الدولتين فى مصر وفى الأراضى المقدسة بفلسطين ، نظرا للصلات الوثيقة والروابط القوية بين الكنيسة القبطية فى مصر وبين كل من كنيستى النوبة والحبشة •

ولكى تتضح أبعاد هذه الدراسة ، فقد قسمت بحثى الى أربعة أبواب على النحو التالى :

الباب الأول : وفيه تحدثت عن « أهل الذمة والوظائف العامة » ، فتناولت الأسباب التى دفعت خلفاء العصر الفاطمى الثانى والوزراء المستبدين بالسلطة ، الى ضرورة استمرار الاستعانة بأهل الذمة فى ادارة الدواوين ، والظروف التى أدت الى تقلد عدد من أهل الذمة لأهم مناصب الادارة العليا ، وعلاقاتهم بالخلفاء والوزراء ، وموقف السلطات الفاطمية من هؤلاء الموظفين عندما كان يتعاظم أمرهم ويستشرى نفوذهم ، كما تحدثت عن الأسباب التى دفعت الايوبيين الى الابقاء على أهل الذمة فى الدواوين ، وناقشت اسباب حركة التطهير التى تمت فى دواوين الدولة فى بداية العصرالأيوبى• وعلاقة سلاطين الأيوبيين وكبار رجال الدولة والادارة الأيوبية بموظفيهم من أهل الذمة ، وموقفهم من الكتاب الذميين لا سيما الأقباط • ثم انتقلت الى الحديث عن بهرام الأرمنى الوزير النصرانى الوحيد الذى تقلد منصب وزارة التفويض فى عصر الفواطم ، وكذا الوزير ابن النحال ، وزير السلطان الملك العادل أبى بكر فى العصر الأيوبى •

وتضمن هذا الباب اشراف أهل الذمة على الدواوين ، وتغلغلهم فى الادارات الحكومية ، مع الاشارة الى الأطباء الذميين ، وعلاقاتهم بالخلفاء الفاطميين ، ووزرائهم العظام ، وكذا بسلاطين الايوبيين ، وامراء الدولة

الأيوبية ، وأثر تلك العلاقة على ذويهم ، واختتم هذا الباب بايضاح موقف المسلمين من سياسة الموظفين الذميين ، ومظاهر الاحتجاج على تلك السياسة ونتائجها •

أما الباب الثانى : فيتناول بالدراسة ،«أهل الذمة والحياة الاقتصادية» وفيه تحدثت عن النشاط الزراعى لأهل الذمة ، والأراضى الزراعية التى بنواحى قرى النصارى أو التى يغلب عليها السكان من الأقباط ، مع الاشارة الى الأراضى الموقوفة على الكنائس والديارات ، وما تعرضت له من مصادرات كما تحدثت عن الحاصلات الزراعية ، وتأثر الانتاج الزراعى بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لمصر فى تلك الفترة ، وارتباط المواسم الزراعية فى مصر بالتقويم القبطى • وفى هذا الباب تناولت بالدراسة النشاط الصناعى لأهل الذمة ، وعوامل ازدهار الصناعة وتقدمها والصناعات التى برعوا فيها ، وأهم المراكز الصناعية التى يغلب عليها السكان من الأقباط وأثر الفن القبطى على كثير من الصناعات ، وتأثر هذه الصناعات والفنون بالسياسة الاقتصادية والاجتماعية والدينية بمصر فى العصرين الفاطمى الثانىوالأيوبى ونختتم هذا الباب بابراز دور أهل الذمة فى مجال التجارة الداخلية ، وكذلك دورهم الهام فى مجال التجارة الخارجية ، وبخاصة دور يهود مصر فى تجارة الشرق •

وفى الباب الثالث ! تحدثت عن « الحياة الاجتماعية والدينية لأهل الذمة وسكناهم قرى ومدن مصر ، وتدهور واندثار اللغة القبطية ولهجاتها وسيادة اللغة العربية وانتشارها • كما تطرقت الى الحياة الاجتماعية لكبار رجال الدولة من أهل الذمة ، ومظاهر نفوذهم وثرائهم ، ومكانتهم المرموقة وموقف المسلمين من هذه الطبقة ، ثم القيود الاجتماعية التى فرضت على الذميين ، التى استندت الى ما يسمى « بالعهد العمرى » أو الشروط العمرية وأسباب فرض هذه القيود • كما تحدثت عن الحياة الدينية لأهل الذمة وأعياد اليهود والنصارى ، ومظاهر الاحتفال بها ، وما جرت به العادة من رسوم ، واهتمام السلطات الحاكمة بها فى العصر الفاطمى الثانى ، والقيود التى فرضت على بعض هذه الأعياد فى العصر الأيوبى • كما تعرضت لسياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء أهل الذمة ، ومرقفهم من رجال الكنيسة ورؤساء اليهود ، وسياستهم ازاء الكنائس والأديرة ، وطوائف الرهبان •

أما الباب الرابع ، فقد أفردته لدراسة « علاقة الفاطميين والأيوبيين بالدول المسيحية وأثر ذلك على أهل الذمة » • وتأتى العلاقات المصرية البيزنطية فى مقدمة هذه الدراسة ، وقد ضمنتها المعاهدات والسفارات التى

تبودلت بين مصر وبيزنطة ، وأثرها على رعايا الدولة من النصارى وبخاصة طائفة الروم الأرثوذكس · كما تعرضت لعـــلاقات الفاطميين والأيوبيين بالصليبيين ، والحملات الصليبية على مصر والشام ، وأثرها على النصارى فى مصر ، والأماكن المسيحية فى بيت المقدس · كما تناولت بالحديث علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبة ومملكة الحبشة نظرا للروابط التاريخية والدينية الوثيقة بين مصر وكل من النوبة وبلاد الحبشة ، مع الاشارة الى بعض السفارات الى هذين البلدين التى تولى رئاستها بعض كبار أهل الذمة بهدف تحسين العلاقات ، والى نتائج هذه السفارات المتبادلة بالنسبة للقبط فى مصر ·

هذا ولا يسعنى الا أن أتقدم بالشكر والتقدير لأستاذى العلامة الدكتور أحمد السيد دراج أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب جامعة القاهرة الذى غمرنى بفيض ما أفاض الله عليه من علمه ، فكان هذا البحث الذى بين يدى القارىء ·

والله الموفق · ولله الحمد ،،

دكتور ســـلام شافعى

الاسكندرية فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٤٠٢هـ
١٦ مارس سنة ١٩٨٢م

عرض لأهـم مصـادر البحث

اعتمدت فى هذا البحث على عدد من مصادر التاريخ الاسلامى المخطوطة والمطبوعة ، الى جانب عدد كبير من المراجع الحديثة ، وتمتاز المصادر التى اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاصروا الفاطميين والأيوبيين ، ومن ثم اكتسبت كتبهم أهمية تاريخية خاصة ، لأنها تحتـوى على كثير من الحقائق والوقائع الصحيحة للعصر الذى عاشوا فيه ، وسأتناول فى هـذا العرض الموجز أهم المصادر التى تتصل اتصالا مباشرا بموضوع البحث ، والتى برزت أهميتها من خلال هذه الدراسة · ويأتى فى مقدمتها المصادر الخطية وفيما يلى عرض لكل منها :

١ ــ كتاب « سير البيعة المقدسة » وهو ذيل لكتاب « ســـير الآباء البطاركة » لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونيين الذى عاش فى أيام المعز لدين الله ، والذى تناول فى مؤلفه تاريخ بطاركة الأسكندرية ، ووقف فى كتابته حتى أوائل العصر الفاطمى · وقد استكمل هذا الكتاب باســـم « سير البيعة المقدسة » أو بأسم « ذيل سير الآباء البطاركة » واشترك فى كتابته مؤلفون قبط من الأحبار المتعاقبين المعاصرين للاحداث ، وقد تولى تسجيل سير البطاركة فى الفترة موضوع البحث على التوالى كل من : موهوب بن منصور بن مفرج الاسكندرانى الشماس ، ويوحنا بن يحيى بن مينا المعروف بابن القلزمى الكاتب ، والبطريرك مرقس الثالث بن زرعة ، وأبو المكارم بن بركات بن أبى العلا ، والأنبا يوساب أسقف فوه · ويعتبر هذا المخطوط من أهم المصادر التى اعتمدت عليها ، اذ يلقى الضوء ساطعا على كثير من الأمور التى تتعلق بأهل الذمة كطبقة اجتماعية عاشت فى المجتمع المصرى فى العصرين الفاطمى الثانى والأيوبى ، ودورهم فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية وسياسة الفاطميين والأيوبيين ازاء الكنيسةورجالها والمراسيم التى أصدرتها السلطات الحاكمة فيما يتعلق بأهل الذمة · كما يلقى هذا المصدر الضوء على علاقات الفاطميين والأيوبيين ببلاد النوبـــة والحبشة ، وأثر ذلك على القبط ، كما ينفرد بالقاء الضـــــوء على موقف الصليبيين فى الشام عقب دخولهم بيت المقدس من أقباط مصر ·